صور من الحياة :

ربة الشاطىء ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

يا ويح قلب ينبض بالحب والهوى ويخفق بالصبا والغرام على حين قد جاوز سن الطيش وطوى أيام العبث ! ولكن ماذا عسى أن يضير المرء إن هو نفض عن نفسه أغلالها ساعة من الزمان ليستمتع برواء الحياة ورونق العمر ، هناك على سيف البحر ، حيث تضطرب الدنيا بالجمال والروح وتموج الأرض بالشباب والحركة !

لشد ما راع صاحبي أن أستمري الوحدة وأستعذب الخلوة فأقضي صدر يومي وحيداً في ناحية من الشاطئ ، أستروح نسمات البحر في شغف ولذة ، وأنشق عبير الحياة في هدوء بعيداً عن نزوات الشاطىء ومباذله ، وأنطوي على نفسي أحدثها حديث عقل حيناً وحديث قلبي حيناً آخر ، ثم أوفق خواطري بين أضعاف كتاب اخترته رفيقاً لي . ولشد ما آذاه أن ألصق في مكاني لا أريم إلا حين تدعوني حاجات الدار أو رغبات الابن أو شهوة البطن .

وإنه لتراعٍ إلى اللذة وصاحبي في عذب تتدفق الحياة في قلبه مرحاً وسعادة ، وتتألق الدنيا في ناظريه حبوراً ودعة ، تجذبه الفكاهة ويستخفه الطرب ، لا تشغله الزوجة ولا يرهقه الولد ولا تثقله الدار .

وعجب صاحبي أن أفزع من حر القاهرة لأتخذ خلوة على الشاطئ ، فأراد أن يستكشف ما وراء ... وحاول — مرات ومرات — أن يكشف عن سر صاحبه — أنا — وإنه ليرى فيه شغل البال وقلق الضمير ، فما كان ليظفر مني إلا بنظرة خاطفة أو كلمة عابرة ثم يضيق بي فينطلق من لدني ليتسكع على الشاطىء أو ليسبح في البحر أو ليملأ ناظريه من جمال الأجسام العارية الملقاة على الرمال .

ولكن صاحبي كان ضيق الصدر قليل الصبر فأصر على أن ينفذ إلى سر نفسي — كزعمه — في لباقة ومكر ، فجلس إليّ يحدثني قائلاً : هلا حدثتني عن بعض ما يفدحك ؟ « قلت » يفدحني ؟ يفدحني أنا ؟ ماذا بك ؟ « قال » لعلك جئت إلى هنا تريد أن تدفن همومك في رمال الشاطئ أو تطمع في أن تغرقها في لجة اليم ! فقلت له مغاطياً « على رسلك ! يا صاحبي » ولكنه استمر في حديثه لا يبالي : فلما أعجزك أن تفعل جلست في ناحية تبدي فيها ثم تعيد فعميت عن أن ترى هنا غير خواطرك السود وتفهم الشاطىء والبحر مما وتحول بينك وبين الحياة ستراً ثقيلاً « قلت » ها ... ها ! وكأن حاجة في نفسك دفعتك إلى أن توهمني بأن أعباء تثقلني اتباع غاية في نفسك ! « قال » فما بالي أراك ساكتاً في مهوم تنضم على خطرات قلبك وتنطوي على دفعات نفسك تنفض الطرف عن الدنيا في قناعة وتسكت القلب عن المتعة في زهد ومن حواليك بسمات الشاطىء تتكشف عن نشوة ولذة « قلت » وماذا عساي أن أفعل وأنا من ترى ؟ ثم أشرت إلى شعرات بيض تلمع في فودي . فقال « أرى ؟ أرى ؟ » ثم جذبني وهو يضحك في سخرية ويقول « أراك شاب القلب واليد واللسان ! »

وألقيت السلم إلى صاحبي وفي رأيي أنني أهرب من سجن ... من الظلة والكتاب ، وخُيِّل إليّ أن الظلة هي سجن جسمي وأن الكتاب هو سجن عقلي ، فانطلقت إلى جانبه .

واندفع صاحبي ينشر أمامي تاريخ قلبه منذ أن فزعنا من ظلى القاهرة إلى ربيع الاسكندرية ، ومنذ أن انطلق هو على سنته تدفعه حرية الشباب والعزوبة ، وجلست أنا تحت الظلة تقيدني أغلال الزوجة والأسرة . وقال فيما قال ... ورأيت عنارة الشاطىء ، وهي فتاة أشربت روح الخمر ، في جسمها نشوة ، وفي عطرها سكر ، وفي نظراتها سحر ، هي زهرة الشاطىء الياسمة وجماله الخلاب وروحه الرقاقة ، وهي ... « قلت مقاطعاً » كفى ! لقد أصبحت شاعراً وعهدي بك بليد اللسان بليد العاطفة . ولا عجب ، فالشاطىء الآن — في ناظريك — يملأ ألف ربة « قال » لا تعجب فسأريكها .

وأقبلت ربة الشاطىء تتهادى في رقة وتخطر في دلال فتعلق بها بصري ما يطرف ، ورأيت فتاة تشع جمالاً وتصف بالقلب ويعبث بالفؤاد ، وهي تسير الهوينى في تبّان أنيق ما كشفه يد صناع فبدت عليه سمات الذوق السليم والفن السامي ، وإنه ليكشف عن فتنة يقظى ويواري فتنة نائمة ، وإن نسمات البحر العادية تداعب شعرها الذهبي المرسل فيضطرب على كتفيها ويداري صفحة خدها الأسيل حيناً ويكشف عنها حيناً فتتراءى الروعة والبهاء

من خلاله . ورأيت في نظراتها عزوفاً عن التطلع وفي مشيتها كبرياء الأنفة وفي حركاتها امتهاناً للنظرات الهمة وفي أذنيها وقراً من كلمات الإعجاب والملق ، كأنها تعيش في عالمها هي ... عالم الجمال والسحر والفتنة ، عالم السمو الترفع والصلف . ومرت بي فأحسست بقلبي يمرد بين ضلوعي في شدة وعنف ويتشبث بها في إصرار وعناد فرمى ما اشتد من عزمي وتحطم ما تماسك من قوتي ، وحاولت عبثاً أن أصرف عنها خواطري لأن قلبي كان قد علقها على حين غفلة مني . ورأيتني أندفع خلفها ، بالرغم مني ، وأنا أجرُّ صاحبي خشية يبتلعها الجمع الزاخر على سيف البحر .

وانتحت ربة الشاطئ مكاناً قصياً في منأى من أمواج البشرية المتلاطمة على سيف البحر عسى أن تسكن ساعة إلى نفسها . وهناك ، نزلت إلى البحر ثم اندفعت بين طيات الماء تصارع الموج في عزيمة لا تخشى نصباً ولا رهباً .

وفي صباح اليوم التالي شهد الشاطئ أمراً عجباً ، شهد هذا الرجل الذي ظل أياماً طوالاً يعيش في ثنايا فلسفته ، ينطوي على نفسه ويسكن إلى كتابه وحيداً تحت مظلة لا يعل الوحدة ولا يأنس إلى رفيق ... شهده — لأول مرة — يذرع الشاطئ في تيه وزهو ونظراته زائغة ما تستقر وعقله قلق ما يهدأ وفؤاده مضطرب ما يسكن .

وحين اندفعت ربة الشاطئ إلى البحر — كدأبها — اندفعت أنا من ورائها أغالب الموج وأنا أحس بفورة الشباب تتدفق في عروقي وتدفعني — في حرارة — إلى غاية . وشعرت الفتاة بي وأنا أثابرها في خفة وصمت فنظرت فارتاعت — بادئ ذي بدء — ولكن حديثي بث في نفسها الرضا والطمأنينة ، فانطلقنا معاً جنباً إلى جنب لا أستشعر الكلال ولا أحس التعب

وعدنا إلى الشاطئ صديقين جمعتنا أمواج البحر على الصفاء ساعة فيها لذة القلب وسعادة العمر ، عدنا لنتلاقى — بين الحين والحين — على ميعاد .

وأحسست بالسعادة تتسرب إلى قلبي وبالهدوء يتدفق في فؤادي وبالنشاط يتألق في عروقي وبالشباب يغمر روحي ، وانطوت أيام ...

لك الله يا صاحبي ! لقد جذبتني من خلوتي لأكون صديق روحانك ورفيق غدوانك ، فقعدت في الصاحب والرفيق حين دفعتني إلى الفتاة التي سحرتك .. إلى ربة الشاطئ .

وعز على صاحبي أن تستشعر الدار فقدي ، وهو من ذوي قرابتي الأدنين ، وأن يحس هو مني الإهمال وإنه لذو دالة علي ، فجاء يشكوني إلى نفسي . وأنصت إلى حديثه بأذني وقلبي هناك . هناك عند الفتاة التي صرفتني عن الزوجة والابن والدار جميعاً .

وبدا لي أن الفتاة قد سيطرت على مشاعري فغدوت مسلوب العقل مختلب اللب لا أجد الدور إلا من خلال نظراتها الساحرة ولا آنس السعادة إلا في نبرات صوتها الموسيقي ولا أحس الدفء إلا إلى جانبها ، فأراد أن يبلغ غايته من بين خفقات قلبي ، فقال : « لقد شغلت — منذ حين — عني وأنا أطمع أن أظفر ببعض وقتك لأصحبك في نزهة جميلة » قلت في جفوة « أي نزهة تريد؟ » قال « نقضي معاً سهرة الليلة في كازينو كذا » قلت « ولكنني أمقت السهر لأنه عناء ينفث الدلة في الجسم ويبذر الضعف في الشباب ويلقي الخبل في العقل » قال « إنك ولا ريب تحتال لتتمنع عليّ ببعض فراغك ، وأنا منك من تعلم » ثم نظر إلى نظرة فيها الرجاء والاستعطاف رق لها قلبي فما استطعت أن أرفض طلبته .

وهناك في الكازينو تملقني جو المرح وسيطرت على روح البهجة فرحت أنا وصاحبي نعبث في هدوء ونسخر في أدب ونضحك في رقة . وعلى حين فجأة قال لي صاحبي وهو يشير إلى المسرح « انظر ، ما أجمل هذه الراقصة ! » ونظرت ... نظرت فإذا الراقصة هي فتاتي ... هي ربة الشاطئ .

وأصابني الذهشة والذهول لما رأيت . إنها راقصة من بنات الهوى تنفث السم في قلوب الناس لتسرق الرجل من زوجته وماله وتستلب الزوج من زوجته وأولاده . إنها مون الشيطان يريد أن يهدم الدار ويشتت شمل الأسرة .

وهدني الحزن لما رأيتها — بعد حين — تتنقل بين موائد الشباب والشيوخ على السواء كذبابة خمانة بها نهم فهي تسقط فلا تسقط إلا على القذر والنتن . وأوشك الأسى أن يعصف بي لولا سبابة من رجولة ما تبرح تتأجج بين ضلوعي .

وانطلقت إليها وفي نفسي ثورة مكفوفة ، ورحت أهزها في عنف وأحدثها في كمد ثم دفنتها هنا وأنا أناديها وداعاً ... وداعاً ، يا ربة الشاطئ » .

يا ربة الشاطئ ! إن حب الابن في قلب الرجل فوق حبك ، وإن هوى الزوجة فوق هواك ، وإن راحة الدار فوق رغباتك ! فوداعاً — وداعاً يا ربة الشاطئ .

كامل محمود حبيب